محمد عطية الإبراشي

قِصَّةُ صَلاحِ الدِّينِ الأَيُّوبِيِّ

قَصَصٌ إِسْلامِيَّةٌ لِلأَطفال

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

بُنَيَّ العَزِيز :

سَأَذْكُرُ لَكَ فى هٰذا الكِتابِ قِصَّةً جَمِيلَةً عَنْ حَياةِ صَلاحِ الدِّينِ ، وَكَيْفَ تَرَبَّى وَهُوَ صَغِيرٌ ، لِيَكونَ بَطَلًا عَظِيمًا وَهُوَ كَبِيرٌ .

مَوْلِدُهُ :

وُلِدَ صَلاحُ الدِّينِ فى بَلْدَةٍ صَغِيرَةٍ هِىَ تَكْرِيتُ مِنْ بِلادِ العِرَاقِ سَنَةَ (٥٣٢ هِجْرِيَّة و١١٣٧ مِيلَادِيَّة) مِنْ أُسْرَةٍ (عائِلَةٍ) كُرْدِيَّةٍ كَرِيمَةِ الأَصْلِ .

وَفى اللَّيْلَةِ الَّتِى وُلِدَ فِيها صَلاحُ الدِّينِ يُوسُفُ بْنُ أَيُّوبَ قَدْ أَمَرَ حاكِمُ تَكْرِيت

بِطَرْدِ أَبِيهِ أَيُّوبَ ، وَعَمِّهِ أَسَدِ الدِّينِ شِيرْكُوه مِنْ تِكْرِيتَ .

فَتَشَاءَمَ أَبُوهُ كُلَّ التَّشَاؤُمِ مِنْ وِلَادَتِهِ ، حَتَّى أَرَادَ أَنْ يَقْتُلَهُ حِينَمَا سَمِعَهُ يَصِيحُ ، وَالأُسْرَةُ كُلُّهَا خَارِجَةٌ مِنْ تِكْرِيتَ إِلَى بَلْدَةٍ أُخْرَى .

فَنَصَحَ لَهُ وَاحِدٌ مِنَ الحاضِرِينَ أَلَّا يَمَسَّ هٰذَا الطِّفْلَ المَظْلُومَ البَرِيءَ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَرْتَكِبْ أَيَّ ذَنْبٍ ، وَلَمْ يَعْمَلْ شَيْئًا يُعَاقَبُ عَلَيْهِ ، وَلَمْ يُحِسَّ بِمَا جَرَى لِأَبِيهِ . وَأَمَرَهُ أَنْ يُحَافِظَ عَلَيْهِ ، وَقَالَ لَهُ :

أَرْجُو أَنْ يُبَارِكَ اللهُ فِى ابْنِكَ هٰذَا ، وَيَجْعَلَ لَهُ مَرْكَزًا عَظِيمًا فِى المُسْتَقْبَلِ ، عِنْدَمَا يَكْبَرُ .

تَرَكَتِ الأُسْرَةُ تِكْرِيتَ ، وَتَرَكَهَا أَبُوهُ وَعَمُّهُ

وَالجَمِيعُ فِى شِدَّةِ الكَدَرِ وَالحُزْنِ . وَانْتَقَلَتْ إِلَى مَدِينَةِ المَوْصِلِ بِالعِرَاقِ ، فَأَكْرَمَهَا حَاكِمُهَا كُلَّ الإِكْرَامِ ؛ لِأَنَّ أَبَا صَلاحِ الدِّينِ كَانَ قَدْ أَكْرَمَهُ فِى تَكْرِيتَ مِنْ قَبْلُ ، فَرَدَّ لَهُ الجَمِيلَ ، وَأَعْطَاهُ وَأَعْطَى أَخَاهُ ضَيْعَةً (عِزْبَةً) كَبِيرَةً مِنَ الأَرْضِ الزِّرَاعِيَّةِ لِزِرَاعَتِهَا ، وَالِانْتِفَاعِ بِمَحْصُولاتِهَا .

وَعَاشَتْ أُسْرَةُ صَلاحِ الدِّينِ مُعَزَّزَةً تَجِدُ كُلَّ تَكْرِيمٍ بِالمَوْصِلِ .

تَرْبِيَتُهُ وَتَعْلِيمُهُ :

وَرِثَ صَلاحُ الدِّينِ عَنْ أَبِيهِ الذَّكَاءَ وَسُرْعَةَ الفَهْمِ . وَلَمَّا بَلَغَ مِنَ العُمْرِ سِنَّ الدِّرَاسَةِ وَالتَّعَلُّمِ أَرْسَلَهُ أَبُوهُ إِلَى المَدْرَسَةِ ، وَاخْتَارَ

لَهُ أَحْسَنَ المُعَلِّمِينَ ، وَاهْتَمَّ بِتَرْبِيَتِهِ وَتَعْلِيمِهِ كُلَّ الاهْتِمامِ ، فَتَعَلَّمَ القِراءَةَ وَالكِتابَةَ فى مُدَّةٍ قَصِيرَةٍ ، ثُمَّ حَفِظَ القُرْآنَ الكَرِيمَ ، وَدَرَسَ الحَدِيثَ الشَّرِيفَ ، وَتَعَلَّمَ اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ وَقَواعِدَها .

وَقَدْ عُرِفَ صَلاحُ الدِّينِ بَيْنَ زُمَلائِهِ فى المَدْرَسَةِ بِالهُدوءِ مَعَ الذَّكاءِ ، فَكانَ هادِئَ الطَّبْعِ ، يُحِبُّ النِّظامَ ، وَلا يُسْمَعُ لَهُ صَوْتٌ ، وَلا يَمِيلُ إِلَى الضَّوْضاءِ .

وَكانَ يَخْتَلِفُ عَنِ الفِتْيانِ الَّذِينَ مِنْ سِنِّهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ؛ فَهُوَ كانَ مُحِبًّا لِلْمُطالَعَةِ وَدِراسَةِ الكُتُبِ ، وَالاطِّلاعِ عَلَيْها أَكْثَرَ مِنْ حُبِّهِ لِلَّهْوِ وَاللَّعِبِ ، وَهُمْ كانُوا يَجِدُونَ لَذَّةً وَسُرُورًا فى اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ أَكْثَرَ مِنَ القِراءَةِ وَالتَّعَلُّمِ .

ثُمَّ انْتَقَلَتِ الأُسْرَةُ إِلَى مَدِينَةِ دِمَشْقَ مِنْ بِلادِ الشَّامِ . وَكَانَ لِأَبِيهِ مَنْزِلَةٌ كَبِيرَةٌ بِهَا .

وَفِي دِمَشْقَ مَكَثَ صَلاحُ الدِّينِ أَكْثَرَ مِنْ عِشْرِينَ سَنَةً مِنْ حَيَاتِهِ .

وَقَدِ اسْتَمَرَّ صَلاحُ الدِّينِ مُحِبًّا لِلدِّرَاسَةِ وَالِاطِّلاعِ . وَتَلَقَّى الْعِلْمَ عَنِ الْعُلَمَاءِ ، وَدَرَسَ بِالْجَامِعِ الأُمَوِيِّ الْكَبِيرِ .

وَكَانَ يَمِيلُ كَثِيرًا إِلَى الِاسْتِمَاعِ لِلْعُلَمَاءِ وَالأُدَبَاءِ وَالْفُقَهَاءِ ، حَتَّى صَارَ عَالِمًا أَدِيبًا مُثَقَّفًا وَهُوَ شَابٌّ . وَاقْتَدَى بِأَبِيهِ وَعَمِّهِ .

تَعَلُّمُهُ الْفُرُوسِيَّةَ ، وَمَهَارَتُهُ الْحَرْبِيَّةُ :

لَمْ يَنْسَ أَبُوهُ أَنْ يُعَلِّمَهُ الْفُرُوسِيَّةَ ، كَأَبْنَاءِ الأَشْرَافِ وَالْعَرَبِ ، وَيُدَرِّبَهُ عَلَى اسْتِعْمَالِ

الأَدَواتِ الحَرْبِيَّةِ ، وَطُرُقِ القِتالِ . فَأَظْهَرَ مَهارَةً حَرْبِيَّةً كَبيرَةً أَدْهَشَت أَباهُ .

وَقَدْ ظَهَرَتْ فُروسِيَّتُهُ وَشَجاعَتُهُ وَإِقْدامُهُ حِينَما اشْتَرَكَ فِي الحَرْبِ .

وَلاتَعْجَبْ ، فَقَدْ قَرَأَ صَلاحُ الدِّينِ كَثيرًا عَنِ الأَبْطالِ الَّذِينَ يُدافِعونَ عَنْ أَوْطانِهِمْ وَبِلادِهِمْ ، فَاشْتاقَتْ نَفْسُهُ لِلدِّفاعِ عَنِ الوَطَنِ وَالمَظْلومِينَ وَالمُعَذَّبِينَ .

وَحِينَما بَلَغَ مِنَ العُمْرِ خَمْسًا وَعِشْرِينَ سَنَةً تَقَدَّمَ إِلَى مَيْدانِ القِتالِ لِلْمَرَّةِ الأُولَى مِنْ حَياتِهِ ؛ فَقَدْ أَرْسَلَ السُّلْطانُ نُورُ الدِّينِ حاكِمُ سُورِيَةَ جَيْشًا إِلَى مِصْرَ ، لِيُخَلِّصَها مِنَ (الإِفْرِنْجِ) الَّذِينَ أَغارُوا عَلَيْها وَهاجَمُوها .

وَجَعَلَ عَمَّ صَلاحِ الدِّينِ - وَهُوَ أَسَدُ الدِّينِ

شِيرْكُوه ـ قائِدًا لِذٰلِكَ الجَيْشِ .

سَفَرُهُ مَعَ عَمِّهِ إلَى مِصْرَ :

ذَهَبَ صَلاحُ الدِّينِ الوَطَنِيُّ المُخْلِصُ ، مَعَ عَمِّهِ إلَى مِصْرَ ؛ لِلدِّفاعِ عَنِ الإسْكَنْدَرِيَّةِ الَّتِي هَجَمَ عَلَيْها العَدُوُّ هَجَماتٍ كَثِيرَةً . وَهُنا تَحَقَّقَتْ مُيولُ صَلاحِ الدِّينِ فِيما اشْتاقَتْ نَفْسُهُ إلَيْهِ . وَأَظْهَرَ مِنَ الشَّجاعَةِ وَالبُطولَةِ ماأَدْهَشَ جَمِيعَ القُوّادِ . وَطَرَدَ الأَعْداءُ مِنَ الإفْرِنْجِ ، وَتَمَّ النَّصْرُ لِجَيْشِ عَمِّهِ (شِيرْكُوه) فَعَيَّنَهُ الخَلِيفَةُ الفاطِمِيُّ بِمِصْرَ وَزِيرًا لَهُ .

فَأَقامَ هُوَ وَابْنُ أَخِيهِ صَلاحُ الدِّينِ فِي قَصْرٍ جَمِيلٍ بِالقاهِرَةِ ، تُحِيطُ بِهِ الحَدائِقُ الواسِعَةُ ، وَيَقْرُبُ مِنْ نَهْرِ النِّيلِ ، العَذْبِ الجَمِيلِ .

صَلاحُ الدِّينِ يَبْحَثُ أَحْوالَ المِصْرِيِّينَ :

بَدَأَ صَلاحُ الدِّينِ يَتَقَرَّبُ إِلَى الشَّعْبِ المِصْرِيِّ الكَرِيمِ ، وَيَخْتَلِطُ بِجَمِيعِ طَبَقاتِهِ : الغَنِيَّةِ وَالفَقِيرَةِ وَالمُتَوَسِّطَةِ ، وَيَبْحَثُ أَحْوالَ مِصْرَ وَالمِصْرِيِّينَ ، وَيُدَقِّقُ فِى كُلِّ مايَرَى وَما يَسْمَعُ . فَأُعْجِبَ بِهِ المِصْرِيُّونَ ، وَأَحَبُّوهُ كُلَّ الحُبِّ ، وَتَمَنَّوْا أَنْ يَأْتِىَ ذٰلِكَ اليَوْمُ الَّذِى يَتَوَلَّى فِيهِ أُمورَهُمْ ، لِيُخَلِّصَهُمْ مِنْ ظُلْمِ الحُكّامِ وَالوُزَراءِ ، وَالاِسْتِبْدادِ وَالشِّدَّةِ فِى المُعامَلَةِ .

وَقَدْ حَقَّقَ اللّٰهُ ماتَمَنّاهُ الشَّعْبُ المِصْرِيُّ ؛ فَبَعْدَ خَمْسِ سَنَواتٍ ماتَ عَمُّهُ (شِيرْكُوه) . فَحَزِنَ عَلَيْهِ صَلاحُ الدِّينِ حُزْنًا شَدِيدًا ؛

لِأَنَّهُ كانَ يُحِبُّ عَمَّهُ ، وَكانَ عَمُّهُ يُحِبُّهُ .

وَقَدِ اخْتارَ الخَليفَةُ الفاطِمِيُّ بِمِصْرَ صَلاحَ الدِّينِ وَزيرًا لَهُ بَدَلًا مِنْ عَمِّهِ ، فَخَفَّفَ ذَلِكَ الاِخْتِيارُ مِنْ شِدَّةِ حُزْنِهِ عَلَى عَمِّهِ .

عَرَفَ صَلاحُ الدِّينِ أَحْوالَ البِلادِ فِى السَّنَواتِ الَّتِى عاشَها بِمِصْرَ ، فَعَزَمَ فِى نَفْسِهِ عَزْمًا أَكيدًا أَنْ يَقْضِيَ عَلَى المَظالِمِ ، فَنَشَرَ العَدْلَ التَّامَّ بَيْنَ جَميعِ الطَّبَقاتِ ، وَأَخَذَ لِلْمَظْلومِ حَقَّهُ مِنَ الظّالِمِ ، وَمَنَعَ الرِّشْوَةَ ، وَاهْتَمَّ بِالرَّىِّ ، وَنَظَّمَ تَحْصيلَ الضَّرائِبِ ، وَفَتَحَ بابَهُ لِطُلَّابِ الحاجاتِ ، وَأَعَدَّ جَيْشًا مِصْرِيًّا قَوِيًّا ، فَأَحَبَّهُ المِصْرِيُّونَ ، وَأَخْلَصوا لَهُ .

وَقَدْ عُيِّنَ صَلاحُ الدِّينِ حاكِمًا لِمِصْرَ وَعُمْرُهُ ثَلاثونَ سَنَةً ، وَاتَّخَذَ لِنَفْسِهِ حُرّاسًا

مِنْ جُنُودِهِ الْمُخْلِصِينَ لَهُ .

وَأَتَتِ الوُفُودُ مِنَ البِلادِ تُهَنِّئُهُ ، وَتَدْعُو لَهُ ، وَتَرْجُو أَنْ يَكُونَ عَصْرُهُ عَصْرَ سَعادَةٍ وَإِصْلاحٍ لِلْبِلادِ .